صراع مع الذكريات

استعارت الصغيرة المنديل من جدتها وخرجت تتباهى به كما هي حال كُلُّ صويحباتها من البيوت المجاورة .. إلا أنَّ الرياح برعونتها نفضت البساط بما فيه .. أكوابهم الملونة .. الكعك الذي هو من صنع أيديهم ومناديلُهم التي حلَّقت عاليا .. ارتفع منديلي الغالي نحو السماء التي انتهزت الفرصة وقدّمت له دعوة لزيارتها إلا أنَّ شجرة غنّاء عامرة كانت الأسبق .. اجتذبنه إليها تنصحه:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ..

فدعك من السماء وتهادَ فوق أغصاني ..

دع القمر يناغيك بلطفه ..

والشمس تداعبك دون أن تؤذيك ..

مرَّ اليوم الأول بسلام تبعه الثاني والثالث حتى إذا ما خاطب الليل النهار يستأذنه بنقل متاعه نحو العالم الآخر أن يسمح لسُنَنِه أن تلج و لقانونه أن يُرام .. تسلَّقت قطة أعلى القمة وجعلت تموء حتى الصباح .. مواءٌ أزعج الجيران وشدَّ انتباه المّارة مما استدعى حضور رجال الإطفاء .. صعد أوسمهم وأعدلهم طولا .. لم تمنحه المشاكسة فرصة .. قفزت فوق

رأسه ثمَّ تشبَّثت بثيابه .. وفي طريق عودته لمح المنديل فعزم بسببه العودة إليه .. أوصل القطة بأمان وحالا إليه .. التقطه وكاد أن يقع بسببه لولا أنَّه تماسك .. ولّما لم يجد صاحبًا له .. قرَّر إهداءه لزوجته.

مرَّ الشتاء ثقيلا وأتى الربيع بخفَّته المعهودة وبجماله الأخّاذ .. كانت مُنهمكة في تزيين المائدة عندما رنَّ جرس الهاتف وما من مجيب .. رنَّ مُجدَّدًا لتُجيب:

ــ نعم أنا هي ..

ــ لقد استيقظ ..

شخصت عيناها .. والتجمت شفتاها .. لحظات ثمَّ التفتت إلى زوجها: لقد استيقظ ..

تركت السماعة والخط مفتوحًا .. التقطت مفاتيح سيارتها وانطلقت نحو الجانب الآخر من البلدة وزوجها خلفها .. تبعها بعد أن ملَّ من مناداتها ومحاولة إيقافها .. سألت الممرضة عن مكانه فدلَّتها عليه .. كان حينها يرمق السقف لّما نادته فنظر إليها .. لم يكن فرحًا .. لم يتفاجأ حتّى ودموعها التي تناثرت لم تبدِّل كيانه: لقد استغرقتَ وقتًا طويلا حتى استيقظت .. لقد فقدت الأمل .. خِلتُ بأنَّك استسلمت فاستسلمت .. نعم.. أعلم .. كان عليّ أن أنتظر أكثر .. أن أقاوم أكثر كما فعلت .. أعتذر ..

ــ بل أنا من عليه الاعتذار سيدتي .. فأنا لست من تعتقدين، ربما أنّك أخطأت الغرفة ..

ــ أصابها الجمود لثوانٍ ثمَّ أردفت مبتسمة: آه .. أنت غاضب مني لأن زياراتي قلَّت في الآونة الأخيرة .. أعتذر عن هذا أيضًا ولكن صدقني فأنا لم أتخلف عن زيارتك يومًا حتى .. حتى .. بخجلٍ شديد: تراكمت المشاغل عليْ ..

ــ الزوج الآخر: ماذا تفعلين هنا؟

ــ إليه تشير إليه بفرحة عَلت محيّاها: انظر .. لقد استيقظ ..

ــ لم يعبَأ بها وتوجّه إليه غاضبًا قائلا: تلك المرأة لم تعد زوجتك، هي زوجتي الآن وهؤلاء هم أطفالنا ولذا .. أنصحك بالابتعاد عنها وابحث لك عن حياة أخرى ..

ــ عَلت نبرة صوتها قليلا: ماذا تفعل .. لِمَ صُراخك؟

ــ لم صُراخي؟ لقد تركتني وانطلقت خلفه ما إن استيقظ .. إن كنت لا تزالين على عهدك به فلم قبِلت بي .. هل أبدو لك مغفلا؟

ــ ارتفع الهرج والمرج بينهما ممّا استدعى حضور الدكتور الذي أتى بصحبة عدد من الممرضات .. كانت الصدمة كبيرة والصفعة مؤلمة .. قاسية

حينما علمت بأنَّ زوجها السابق الذي ظلَّ حبيسًا لغيبوبةٍ نافت[1] العشر سنين ببضع سنين قد فقد ذاكرته وأمله ضئيل جدًّا في استرجاعها .. سقطت أرضًا مغشيًّا عليها فلمّا أفاقت وقد كان بقربها .. احتضنت يده قائلة:

علينا أن ننفصل ..

ــ هه ..

ــ نعم .. ألا تذكر .. كان هذا هو شرطي الوحيد للزواج بك .. أن ننفصل متى استيقظ ..

عادوا جميعًا إلى المنزل بعد أن طلب منهم الدكتور منح المريض متَّسعا من الراحة .. هي الراحة التي لم تجد مُتَّكأً لها وسط ذلك العش الهادئ .. فحروب طاحنة اشتعلت كُلٌّ يتَّهم الآخر بالكذب وينسب إليه أشنع التهم وأسوؤها .. هي حرب لم تنته حتى أتى بكرهما يحمل أخاه الذي كان يبكي ولّما لم يستمعا إلى نداءاته بكى هو الآخر حينها توقفوا .. أغلقت الباب خلفها تاركة إيّاه يرعى الصغيريْن .. غير أن أصغرهما سنّا لم يتوقف فهو بحاجة إلى الغذاء ممّا اضطره للدوْس على كبريائه وطرق بابها .. رجاها حتى فتحته .. أخذته ثمَّ عادت فأغلقت الباب خلفها .. خرج وبعد منتصف

---

(١) نافت: علت

الليل بساعة عاد .. بدَّل ملابسه وما كاد يستلقي بقربها حتى همَّت بالمغادرة .. منعها .. حمل وسادته .. لحافه وغادر وقبل أن يفعل قال مُدافعًا عن نفسه مُحاولا ثنيها: أنا لم أخدعك كما أنّني لم أنس اتفاقنا إلا أنّه شرط من المُحال حدوثه أو تقبُّله .. عندما رضيت بشرطك حينها كان همي الوحيد هو .. الارتباط بك مُتناسيًا أمر المستقبل وما سيحمله موهمًا نفسي مُقنعًا إيّاها أنّك قد تتغيَّرين .. ولكن من الواضح جدًّا بأنّ ذلك لم يحدث ومع هذا .. فلن أقبل بالانفصال .. فإن لم تكوني بحاجة إليْ .. فأنا بحاجة إليك .. أبناؤك بحاجة إليك .. ذكرياتنا وما ممرنا به من لحظات .. حياة بأكملها مضت .. لا يُعقل أن ترمي بكلِّ ذلك خلفك فقط لتلبي حاجات قلبك .. تلك قسوة منك وأنتِ .. لستِ قاسية ..

ولّما لم تُجبه .. تركها بعد أن أطفأ النور.

ما إن أشرقت شمس اليوم التالي وغادر بمعدة خاوية إلى عمله حتى استيقظت، لم تكن بَعْدُ قد غفت من ليلة لم يرقأ لها جفنٌ فيها، فقد صال التفكير فيها وجال يبحث في حال الحبيب الذي لا يتذكَّر وجهًا كان يجلب له السعادة ولا يُميِّز صوتا لابُدَّ أن يسمع تحيَّته صُبح مساء .. أوصلت صغيرها إلى المدرسة بينما توجَّهت ورضيعها إلى المستشفى .. بضيق استقبلها: سيدتي ماذا تفعلين هنا ؟ إن كنت قد قدِمت للاعتذار فاعتذارك

مقبول .. رجاءً ارحلي .. جلست بقربه فأسرع بالنهوض .. أمسكت يده: انتظر لحظة .. وفتحت صندوقا أحضرته يزخر بالذكريات ..

ألبوم الصور الذي يحكي الحكاية منذ البداية مذ كانا معًا في ملجأ للأيتام حتى اللحظة التي سبقت ذلك الحادث المُرَوِّع والذي لم ينجُ منه إلا إيّاها .. تحدَّثت عن كلِّ ذكرى وكأنّها قد حدثت بالأمس .. تحدَّثت وهي تنظر إليه تراقب ارتداد ناظريه واختلاج جفنيْه .. إلا أنّه لم يمنحها في النهاية مُرادها فقد أنكر معرفته لأيٍّ منها .. صمتت لفترة طويلة: سيدتي طفلك يبكي .. نهضت .. حملته ثمَّ غادرت: سيدتي .. الصندوق ..

ــ لم يعد له أي معنى .. افعل به ما تشاء .. لم ينتظر هو الآخر أكثر .. رماه في سلة المهملات ..

استمر صمتها اليوم بطوله، خادنه شرود .. لا مبالاة .. ونزعة إلى الوحدة لا همَّ لها سوى نبش الماضي والوقوف على أطلاله .. شواهد الحُبِّ التي كانت تتدافع لالتقاط ذكرى تبقى في الأذهان هاهي تنسحب تدريجيا دون أن تلتفت إلى الوراء فطعنات اللوم التي كانت تتلقّاها جعلتها ترتمي في أحضان النسيان .. حالها هكذا لم تتغير، بل ازدادت سوءًا .. انقطعت عن العمل، أما المنزل فالفوضى تعمُّه، فمن كان يدير دفَّة المكان لا يبدو أنَّه سيجد منفذًا له من بين كُلِّ تلك الغيوم السوداء التي اكتظت حوله تكتمُ

أنفاسه وتحجبُ الرؤية من أمامه .. قد صنعت لها من ذكرياتها سجنًا ومن ظلِّها سجّانًا ومن الرفات المتراكم قُفلا أوصدت به الباب على نفسها مما استدعى تدخُّله، فهو لا يستطيع رؤيتها تذوي وهو لا يُحرِّك ساكنا، لا مجال هنا للاعتزاز بالكرامة أو التحلي بالكبرياء، فهو الآخر يذوي في كلِّ لحظة ومع كلِّ آه تتأوَّه بها .. طرق الباب فلم تفتحه .. إنه يومها الثاني وهي حبيسة غرفتها .. لم يتحمَّل أكثر فحطَّم الباب .. لقد كانت حالتها مزرية تبدو كمن رحل عن العالم وروحه مُعلَّقة بين الأرض والسماء .. أسرع إليها تفقَّدها .. قلبها ينبض ولكنها ليست هنا .. هزَّها بكلماته العاصفة: أيتها المجنونة .. أيفعل الحُبُّ بك هكذا .. لقد حوَّلتِ ذلك المفهوم الوديع إلى وحش مريع التهمك ولم يُبقِ منك إلا نظراتك الشاردة ..

ـــ .....

ـــ إنه لا يتذكرك وإن كان يوما قد أحبَّك، فقد دُفن ذلك الحُب في غيابات عقله الباطن .. عليك أن تتقبلي حقيقة أن تلك الفترة من حياته مُحيت .. عليك منحه فرصة لبدء حياة جديدة ..

ـــ .....

ـــ أعلم بأنّك تلومين نفسك .. "لقد استعْجلت .. قد خُنتُه ولم أَكُن وفيّة له" .. إلا أنّه العكس تمامًا، لقد انتظرتِه طويلا .. طويلا كفاية كي

تنهضي مُجدَّدًا إلا أنَّه بالرغم من كُلِّ ذلك وحتى اللحظة التي أنا بها هنا أمامك أراكِ، فأرى أنَّك لا تزالين مُخلصةً لتلك المشاعر حتى الآن، لا بأس في ذلك إلا أنّه في بعض الأحيان، علينا أن نستسلم للمنطق الذي يرغمنا على تقبُّل الواقع وأن نمضي في طريقنا دون أن نشعر بالندم أو الملامة ..

ـــ .....

ـــ عزيزتي .. هل تستمعين إليْ؟

ـــ .....

ـــ مُكتنفًا براحتيْه وجنتيْها: انظري إليْ .. تحدثي إليْ .. قولي شيئًا .. سأستمع إليك وسأفعل أيَّ شيء تريدينه ..

ـــ .....

ـــ عزيزتي .. أرجوكِ قولي شيئًا أرجوك ..

ـــ .....

ـــ التفتت إليه بنظراتها الواهية .. غرزت السكين ذاتها في قلبه مُجدَّدًا قائلة: علينا أن ننفصل ..

نطقت بتلك الكلمة، انطلقت بعدها تبحث عنه: لقد غادر المستشفى وعاد إلى منزله –بيت شاطئ منعزل– منذ قليل .. لحقت به .. ولجت خلفه

بدقائق .. كان حينها يقلِّب صفحات المجلات المتراكمة فوق أرضية صالة الاستقبال حينما شعر بوجودها: ماذا تفعلين هنا؟

ــ لم تُنصت لـه وبادرت قائلة: إنها مجلتك المفضلة .. مذ وقع الحادث وأنا آتي إلى هنا شهريًا لالتقاطها لتنظيف المكان وللمحافظة على جوهره ولاستعادة بعض الذكريات حتى بعد أن تزوجت كنت آتي إلى هنا خلسة .. لم أستطع الابتعاد خصوصا وأنّه المكان الذي جمعنا معًا ..

ــ توجَّه إلى الباب وأمرها بالخروج .. رفضت: هل يعلم زوجك بأمر قدومك إلى هنا؟

ــ لقد انفصلنا ..

ــ بسببي أنا؟

ــ .....

ــ يا إلهي .. ماذا دهاكِ؟ أتدمرين حياتك بسبب رجل لا صلة بينك وبينه إلا الماضي .. ذلك الماضي الذي لم يعد يتعرف عليه .. غريب بالنسبة إليه .. يا امرأة .. استمعي إليَّ جيِّدًا .. لقد كنت زوجتي يومًا لن أُنكر هذا، إلا أنّك الآن .. شخص آخر لا أعرفه البتة ولم ألتقِ به يومًا وعليه .. امضي في حياتك ودعيني أمضي أنا أيضا ..

ــ لا أستطيع .. ذلك مُحال ..

ــ بل المُحال ما تصنعينه الآن .. تخسرين زوجًا يحبك وأطفالا مُتعلقين بك من أجل ماذا .. من أجل رجل استيقظ من عالم الأموات وصفحة ذكرياته بيضاء .. من أجل الأيام الخوالي، ارحلي أرجوك ..

ــ أنت تتذكرني ولكنك تقاوم تلك الذكريات .. توقف ودعها تطفو ..

ــ بحنق يتدفق عكَّر صفوه: عن أي مقاومة تتحدثين .. لا شيء هناك لأقاومه .. أنا الآن لست سوى غريب يحاول التعرَّف على العالم من حوله والتآلف مع وضعه الجديد ..

ــ أنت حتى لم تحاول ..

ــ إن حاولتُ يومًا وتذكَّرت فلن أخبرك .. أتعلمين لِمَ؟ .. أنانيٌّ هو من يطلب منك الانتظار وقد انتظرتِه كفاية .. من يبني حياته على سعادة الآخرين .. إن كنت الرجل الذي أحببته يومًا، فلن ألومك وسأغفر لك وسأشعر بالسعادة لأجلك .. ولذا أرجوك .. ألقي عن كاهلك هذا الحمل الثقيل ولا تكلِّفي نفسك فوق طاقتها .. ظلَّت واجمة صامتة لفترة: سيدتي هلا رحلت الآن؟ فلم تجبه: حسنا إذن .. إن لم تخرجي أنتِ سأخرج أنا ..

ــ انتظر .. امنحني عشر دقائق فقط وبعدها سأرحل ..

جعلت تطوف به - بكرسيِّه المتحرك - أرجاء المكان وفي كل بقعة كانت تحمل ذكرى لم تتوانَ عن ذكرها، ولكن لا فائدة، لايبدو أنه يتذكَّر شيئًا حتى نفذا إلى غرفة نومهما .. تراجع قليلا: دقيقتان فقط وبعدها سأرحل .. جلست على السرير .. أسدلت ظفيرتها من ثُمَّ طلبت منه أن يداعب خصلات شعرها الناعم الكث الكستنائي اللون، فقد كان ذلك أحبَّ الأفعال إلى قلبه: لِمَ فعلتِ ذلك؟

ــ لأني .... لأني نادمة .. لأني لا أستطيع نسيانك أو الافتراق عنك .. لأني بحاجة إليك ..

ــ بأسفٍ جَلِيٍّ وإشفاقٍ واضح: ولكني .. لستُ بحاجة إليك .. ألقى على مسمعها تلك الكلمات القاسية ثم تركها ورحل .. لّما خرج وجد زوجها مُستندًا بظهره قرب الباب الخارجي مُنتظرًا: لم يحدث شيء .. خذها رجاءً وارحل من هنا .. سأعود بعد قليل ..

ــ ولكنها لن تكفَّ عن ملاحقتك ..

ــ ستفعل الآن ..

ــ كانت تبكي حينما جلس بقربها: هو لم يعد بحاجة إليْ ..

ــ تنهَّد طويلا ثُمَّ: نحن بحاجة إليك .. صمت لهنيهة أردف بعدها: وأنا خاصة .. بحاجة ماسة إليك ..

مرَّت الأيام .. وفي ذات مساء وبينما كانت العائلة في نزهة قريبًا من البحر صادف أن مرَّ بجانبها .. لم ينتبه لها، غير أنها لم تستطع أن يمُرَّ بجانبها دون أن تشعر به .. نادته بأحَبِّ الأسماء إلى قلبه فالتفت إليها .. ابتسمت له ثُمَّ صدَّت عنه: إنه يتذكرني ..

ــ ماذا؟

ــ إنه فقط لم يشأ أن يدمِّر حياتي .. كانت لي شكوكي وقد تأكدَّت الآن

ــ وكيف علمت بذلك؟

ــ أتريد حقًّا أن تعلم؟

ــ نعم ..

ــ سأخبرك في وقت لاحق ..

" إنّه الرجل الذي أحببت " تلك هي الإجابة التي خبَّأتها مراعاة لمشاعره ..

عَلِمَ بأنّها عَلِمَت ..

توقَّف صراعه مع الذكريات ..

فابتسامتها جلبت له الرضا ..

فكيف له أن ينسى وجهًا .. يجلب له السعادة ..

ولا يُميِّز صوتًا .. لابُد أن يسمع تحيَّته صُبح مساء ..